الوعى والإدراك

ماذا يجب أن نعى ، و إلى أى مدى ندرك؟؟

للإنسان حواس ومشاعر وأحاسيس تشكل رؤيته وتحدد نوعية وعيه ومدى إدراكه، وبالتالى سلوكه وتصرفاته. ونحاول – فى هذا الفصل – توضيح مدى تأثر الإنسان بالأشياء قربا أوبعدا وتمييزا ؛ ليتبين لنا كيف أننا ننخدع كثيرا فى إدراكنا لحقائق الأشياء ، وذلك يدعونا لشدة الحذر وتجنب الغرور بما علمنا. فكلما كان الشىء أقرب كلما بدا أكبر حجما وأشد وضوحا وتأثيرا ولفتا للانتباه ودعما للإلف والوعى ، وتنطبق هذه القاعدة على مختلف الأبعاد المكانية والزمانية والمعنوية والروابط وغيرها. فالحدث (أو الشىء) كلما كان الإنسان قريبا منه – زمانا أو مكانا أو قرابة أو فكرا أو فهما – كلما كان شديد التأثر به ومهيأ لتقبله وحبه ، وبالعكس كلما بعد الشىء كلما قل التأثر (أو الإحساس) به وإدراكه والاستعداد لقبوله ، تلك قاعدة عامة ، وذلك يفسر المقاومة التلقائية للتغيير لدى الكثير من الناس. وأيضا كلما كان المتحدث بعيدا كلما كان صوته أقل وضوحا وأضعف تأثيرا ، والعكس بالعكس. وكلما تتابعت الأحداث بسرعة كلما تعذر علينا فهمها. ذلك دليل على محدودية قدرتنا.

ويمكن أن يكون البعد والقرب معنويا ، فيطلق لفظ البعيد على الشخص البغيض ولو كان قريبا مكانيا لكنه بعيد عن القلب ، لذلك فكل ما يأتى من ناحيته مرفوض أو غير محبوب ، حتى ولو كان مفيدا. وبالعكس فيمكن أن يكون الشخص بعيدا مكانيا ولكن موضعه فى القلب محفوظ وعزيز وتلميحاته تعد أسعد الأوامر. كل هذه المشاعر والأحاسيس – التى تؤثر بشدة فى تصرفاتنا – قد تكون مبنية على أنصاف أو أشباه الحقائق وليست على الحقائق! لكن هذا ما يحدث ، وربما يمكن تعديل ذلك بالعقل.

الوعى

من الناحية اللغوية ، وعى الشىء يعنى جمعه فى وعاء ، و وعى الحديث يعنى حفظه وفهمه وقَبِلَه ، و وعى الأمر يعنى أدركه على حقيقته ، و الوعى يعنى الحفظ والتقدير ، وفى علم النفس الوعى يعنى شعور الكائن الحى بما فى نفسه وما يحيط به.

إننا لا نعرف بالضبط كيف نعى ، ولكن المحاولات مستمرة للمعرفة ومن الخير أن تستمر ، لكن بالعقل. كيف تتعامل الفيزياء المادية فتلد معلومة لا مادية أو فكرة؟ وكيف يتحول معنى المعلومة إلى فيزياء وكيمياء حية؟ العلاقات بين العقل والمخ! إنها قضايا محيرة تتحدى غرور الإلحاد! سبحان الذى خلق.

الوعى هو أكثر ما يحير البـاحثين فـى مجـال العقـل ، فهنـاك مـن يحـاول تفسـيره بطريقة ميكانيكية بإعتباره نتاج سلوك مجـاميع كبـيرة مـن الخلايـا العصبيـة التـى تتبادل الإشارات فيما بينها. وهناك من يتشكك فى جدوى هذا التوجه.

بما أن هذه التحولات الشُعورية تَحدث فينا ، إذن هى حقيقية ولها كيفية ، لكن هل يمكن لعقولنا أن تتعرف على هذه الكيفية فى يوم من الأيام وتتحكم فيها؟

يرى "بنروز Roger Penrose " ، فى كتابه "ظلال العقل: بحـث عـن علـم الوعى المفقود" ، إصدار جامعة أكسفورد عام 1994، "أن ذلـك فـوق طاقـة تصـــور العقـــل البشـــرى ؛ نظـــراً لوجـــود عنصـــر لا يمكـــن حســـابه (Noncomputable) فى هذه العملية ، التى تحدث بآلية غامضة".

العقل البشرى يعمل ويسـتنتج بالحسـابات ولكـن يبـدو أن عمليـة الوعـى هـذه تحدث **بغير حساب!** كما يحدث الرزق **بغير حساب** ، ولكن بأسباب ، ويجـب علينا أن نتقصى أسباب الوعى ونحافظ عليـه وننميـه ، هـذا هـو الممكـن للعقـل البشرى.

ودليلنا على ذلك هو أن إدراك آلية عمل العقل (والمخ) لو تم - جدلا - فمعنـاه أن يتحـول الإنسـان إلى آلـة طائشـة تملـك مصيرهـا ، وتعلـم مـافى الصـدور ، وتتحدى الموت وتلغى المرض والألم والابتلاء والفناء والجزاء وكل مـا بلغنـا مـن

هدى السماء!! إن الإيمان أصدق من متابعة هذه الأوهام. فلنتقص ما نستطيع مع استحضار أن منازعة الله فيما خص به نفسه واستأثر به فى علم الغيب عنده مستحيل ، وطلب المستحيل جنون. لقد حسم ربنا الأمر لكل الناس إذ يقول ، سبحانه وتعالى: ﴿... **إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمِعُواْ لَهُ** ...﴾ الآية 73 – سورة الحج. صحيح إنه من الممكن صناعة "روبوت" عملاق بشبكة حاسبات شديدة التعقيد تتعرف على الصور والأصوات لكن يظل الأمر مجرد دمية تلتبس عليها أبسط التغيرات وتلعب بها الأصابع وتوافه الإشارات.

ويرى كل من "كريك Francis Crick و كوخ Christof Koch[5]"وغيرهم أنه لو تمكنا يوما من معرفة سر أبسط أشكال الوعى فقد نقترب من سر مركزى للحياة البشرية!

وعلى أى الأحوال ، فلا شك فى أنه أمامنا الكثير جدا جدا الذى يمكن أن نعرفه ونستفيد به قبل أن نطلب المستحيل. أمامنا الباب الواسع لتقصى أسباب الوعى ، وقبل ذلك يجب أن نعرف ماذا يجب أن نعى أولا؟

ولنعد إلى العقل الذى يحكم بكيفية ما بعض نواحى السلوك ، عن طريق ما نسميه الوعى الذى لا نعرف لغته ولا كيفيته بعد ، والوعى يتخذ أشكالا متنوعة بدءاً من الإحساس بالألم العضوى حتى الوعى المعنوى بالذات.

والذى خلقنا - جل وعز - أشار إلى أهمية الوعى إذ يقول: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ الآية 12 - سورة الحاقة. فالمطلوب إذن هو عمليتى التذكرة والوعى ، وهما مترابطتان. فما ننساه ونغفل عنه هو ما نظن عدم أهميته ، أما ما نعتبره هاما فنحرص على التقاط كل ما يتعلق به ، وعدم ونسيانه.

فالانتباه مهم جدا للوعى ؛ والإنسان الغير منتبه أو الشارد يمكن أن يقرأ صفحات من كتاب - بصوت مسموع - دون أن يفهم منها شيئا. وأيضا وسط أكثر من متحدث يمكن أن تركز انتباهك لكلام شخص بعينه دون بقية الكلام المنطلق فى حيز الغرفة. وأيضا من المعلوم أن الآلام الجسدية البسيطة التى تضايقك والقضايا التى تشغلك فى الظروف العادية تُنسى تماما إذا طرأ طارئ غير عادى أو مفاجأة سارة أو غير سارة ؛ لأن الانتباه فى هذه الحالة يتركز فيما يبدو أنه أخطر أو أهم. وحين ينتهى هذا الطارئ الهام نعود لننشغل بالتوافه والأمور البسيطة مرة أخرى ، وهكذا إلى أن نُفاجأ بالقلم يُرفع والصحف تطوى.... فنتيقن من تفاهة الدنيا وكل ما فيها.

وما يحرك الوعى والانتباه هو وجود تغير أو فارق تدركه الحواس ، بدون هذا الفارق المحسوس لا نعى الكثير مما يدور حولنا ، فمثلا نحن لا ندرك بحواسنا الفرق بين نوعية الهواء أمام الغرفة وفى داخلها ، وقد ظل الإنسان لسنوات طويلة لا يميز مكونات الهواء أو يدرك ما هو الهواء الذى يتنفسه ولا يشعر ،

والخط المستقيم يستوى فى أعيننا مهما طال لا نشعر إلا بأنه يفصل (يفرق) بين جانبين إلى أن يبدأ فى الانحناء أو الانكسار عندئذ ننتبه. وأبرز ما نستشعره بالنسبة للدم هو لونه المميز وضغطه الذى يتغير انقباضا وانبساطا ، لكن لا نشعر بتعامله مع خلايا الجسم ، رغم أن هذا التعامل هو المقصود والأهم من الضغط واللون.

مدى الإدراك

يخبرنا ربنا فى أكثر من موضع فى كتابه العزيز أن هناك أمورا كثيرة يتعذر على الإنسان إدراكها. وذلك مثل قوله فى أكثر من موضع ، **وما أدراك ، وما يدريك** ، مما يدل على أن إدراك مثل هذه الأمور غير متاح للبشر بحالهم فى الحياة الدُّنيا. إن إدراك حقيقة كل شىء مستحيل ؛ نظرا لمحدودية قدرة البشر ، ولكن الله قد هيأ لنا إمكانية إدراك ما يلزمنا لحسن تأدية وظيفتنا فى هذه الدُّنيا. إننا نحس فقط ما نتمكن من إدراكه ، والتنوع المتاح إدراكه كثير ، لكن ما يمكن أن ندركه منه محدود. لذلك يجب أن نحدد - بالعقل - أولويات ما نريد إدراكه فى حدود الممكن.

مع أن الوظيفة الأساسية للنظر - والحواس عموما - هى تحسس الأشياء والأحداث فى العالم المحيط بنا ، إلا أن المعلومات المتاحة لحواسنا - المحدودة - لا تكفى بذاتها لإمداد العقل بتأويله الخاص للأمور من حولنا ؛ فلكى يعقل

العقل ما يصل إليه من معلومات يلزمه أن يستدعى خلفيته عن الشيء موضع الرؤية لكى ينشأ التصور ومعرفة ذلك الشيء. فعلى سبيل المثال ، هب أنك قد لمحت سيدة تسير أمامك فى الطرق ممسكة طفلتها بيدها ، فبمجرد اللمحة عرف العقل بخبرته أنها إمرأة ، وحين تستدير هذه السيدة لتلتقط اللعبة التى سقطت من طفلتها ، سوف تدهش أنت حين تجدها بلحية كثيفة وآثار التدخين واضحة على الشارب المُصفر ، إنها رجل! والصورة التى لمحتها أول مرة لم تكن كافية للتفسير الصحيح للصورة! والمعلومات التكميلية التى استدعاها العقل لم تكن مناسبة!

فما تلتقطه الحواس من معلومات أبدا لا يكفى للترجمة الصحيحة لحقائق الأشياء فى تصورنا ، إنما العقل دوما يتعجل ويكمل الصورة بما هو مختزن فى داخله. لذلك فنفس الشيء الذى أمام أعيننا يتصوره كل منا بشكل مختلف ، فما بالك بما لا تدركه الأبصار!

ومجرد إلقاء نظرة على عشرات - الصور المختلفة تماما - المرسومة لنفس الإله ، فى مختلف أرجاء المعمورة تدل على حجم مشكلة التصور فى عقول البشر! وهذا النضح من العقول يُشكّل عقول أجيال تالية، ويزداد البعد عن الحقيقة والتوغل فى الأوهام جيلا بعد جيل.

ويبدو أن خاصية محدودية الإدراك ستلازم الإنسان حتى فى الآخرة ، وقد نستشف ذلك من قوله عز وجل : ﴿... **وأُتُواْ به مُتَشَابِهاً** ...﴾ الآية 25 – سورة البقرة. فبمجرد رؤية أهل الجنة لشكل الثمرة حسبوا – بخبرتهم جميعا – أنها نفس الثمرة التى يعرفونها من قبل ؛ نظرا لعدم وجود فوارق ظاهرة للعين ، ولكن الحقيقة غير ذلك.

والعجيب أن صورة الأشياء تسقط على شبكية العين مقلوبة ، ولا نعرف كيف يتصرف العقل ويعدلها دون أن نشعر أنها كانت مقلوبة! ولربما كانت المقلوبة هى المعدولة! من يدرى ما هى الحقيقة؟!

إن تصورنا للأشياء يضبط نفسه بحيث يتوافق مع الإشارات التى تلتقطها الحواس وخبرتنا عن الأشياء، ويحاول المخ تخطى التناقض إن وجد. وهناك تجربة قديمة جرى فيها تزويد شخص بنظارة ذات عدسة خاصة ، تقلب الصور المرئية ، وطُلب من الشخص عدم خلع النظارة. واستمر الشخص مرتبكا وهو يرى الأشياء مقلوبة ، وبعد حوالى يومين زال الإرتباك ؛ لأن المخ بدأ يصحح الرؤية الواردة إليه ، وبدأ الشخص يرى الأشياء فى وضعها الطبيعى (معدولة). وحين خلع الشخص تلك النظارة عاد يرى الأشياء مقلوبة لفترة من الزمن. معنى ذلك أن نظام "المخ–العقل" ذاتى الضبط بحيث لا يجعلنا نرى الأشياء كما هى ، بل كما ينبغى أن تكون بحيث تتوافق مع خلفيتنا عن الأشياء.

والأعجب من ذلك أن الصور تسقط على شبكية العين ، وهي ذات بعدين فقط (Two-dimension (2D ، ولا نعرف كيف يقوم العقل بترتيبها وتركيبها (تجميعها) بشكل يجعلنا نتصورها ثلاثية الأبعاد (3D). معظمنا لا يشعر بهذه المشكلة لأن العقل يتصرف فيها دون أن نشعر ، مع العلم بأن البعض يقول بأن الوعي يحدث عند أعلى مستويات المنظومة الحسابية. ومشكلة التصور – ثلاثي الأبعاد – تبرز حين نحاول تعليم طالب الهندسة كيف يتخيل أبعاد وأشكال المجسمات من رسومات مساقطها (الثنائية الأبعاد). كثير من الطلاب يجدون صعوبة في ذلك ، لكن لا أحد منهم اشتكى من وجود مشكلة في فهم الرسم ثنائي الأبعاد.

وحتى التصور ثنائي الأبعاد ما هو إلا خبرة موروثة وملموسة من تقاطع وتمايز الخطوط في أعيننا. ففي شكل (1) ، مخالفة المحور Y للمحور X هو الذي جعلنا نتصور ما نسميه المستوى XY. ورغم وجود عدد من النقاط التي لا تحصى عليهما أو بينهما فلا ننتبه لأي من هذه النقاط إلا بسبب يميزها عن غيرها كالانكسار.

سهولة فهم (إلف) الرسم ثنائي الأبعاد جعلت البعض يفترض أن ما نراه هو السطوح المرئية لنا مباشرة بخطوطها "الكنتورية Contours" ، سطحا بعد الأخر ، وهذا الرأى جعل البعض يطرح فكرة "المخطط ذا البعدين ونصف البعد (2.5D)". ولتوضيح ذلك على المجسم (3D) الموضح في شكل (1) ، يلاحظ

أن هذا المجسم لو كان موجودا أمامنا على الطبيعة فإننا أول ما نلمحه سيقع نظرنا على الوجه الأمامى – المظلل XY – وهو 2D ، وسنلاحظ محيطه وكذلك الخط AB ، لكن لن نعى كل نقاط التظليل الموجودة على السطح وكذلك مليارات النقاط التى بينها. ويمكن بسهولة تتبع الحركة على الخط AB وهى حركة (مزدوجة) ذات بعدين أيضا.

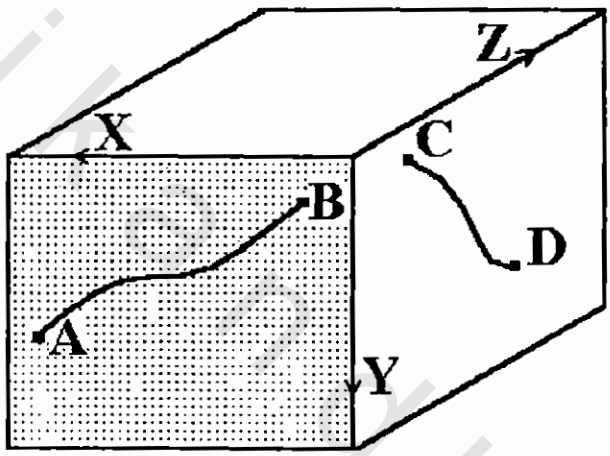

شكل (1). التصور ثلاثى الأبعاد.

وبعد النظر لأحد الأوجه الجانبية ، YZ مثلا ، يستنتج العقل وجود مجسم ويتصوره. من هنا جاءت فكرة وتسمية البعدين ونصف البعد ، أى أنها ليست 2D فقط، وليست 3D تعبر الشبكية فى نفس الوقت. ولكنها ثلاثة أبعاد X-Y-Z تلتقط مثنى مثنى ، X-Y, Y-Z and Z-X. هذا ويلاحظ أن التحرك المباشر من A إلى C مثلا يعتبر ثلاثى الأبعاد.

إن الإنسان لا يُبصر إلا القليل مما يحيط به ويؤثر فيه ، لكن من فضل الله أن ما يبصره الإنسان يكفى لأداء الوظيفة التى خُلق لتأديتها فى هذه الدنيا ، ومن المتوقع – عقلا – أن مدركات الإنسان بعد الموت ستكون مناسبة لحياة البرزخ ، ثم تتطور بعد ذلك لتناسب أحوال الحياة الآخرة بتقدير العليم الخبير ، وهو سبحانه وتعالى أعلم.

والكثير فى هذا الكون لا يبصره الإنسان إما لصغر الحجم وإما لشدة البعد والخروج عن مدى النظر ، أو بسبب النظرة "الكنتورية" السابق الإشارة إليها والتى نلمس ما يؤيدها كثيرا ، فأحيانا نبحث عن القلم – مثلا – بينما هو موجود أمامنا وفى المساحة التى يغطيها نظرنا، وكذلك فحلول الكثير من مشاكلنا تكون متاحة ولكن لا نراها بسبب عدم التدقيق فى تقصى الحلول الممكنة. كما لاحظنا كثيرا أنه حين تنقطع الكهرباء ليلا فجأة نشعر لحظيا بما يشبه العمى ، وفى خلال دقائق نبدأ فى رؤية ملامح الأشياء من حولنا وكأن البصر يعود لأعيننا تدريجيا.

بالمعدات المستحدثة أمكن الإنسان أن يمد بصره بعض الشىء فى محيط المادة. لكن يظل الخفى والمجهول هو الأكثر والأكثر ، فهل تمتد البصيرة أيضا لنحلق فى سماوات النور؟ إن ذلك مشروط بفهمنا لأنفسنا.

وأبرز أسباب عدم وضوح المشاهدة هو البعد المكانى (طولا أو قصرا) فشدة القرب توضح التفاصيل وفى نفس الوقت تضيق الأفق ، بينما شدة البعد توسع الأفق على حساب التفاصيل ؛ والسبب هو محدودية قدرة الإنسان. وأبرز أسباب ضعف الإحساس هو كثافة الحواس أو كما يقال "سَماكة الجلد" ، أو الكراهة. وأبرز أسباب الجهل هو ضعف البصيرة.

وحواس الإنسان تُخدع أكثر بسبب البعد المركب (زمانا ومكانا) ، ومثال رصد النجوم يوضح مدى ذلك الخداع ، فما نرصده على البعد ليس النجم ذاته ولكنه موقعه الذى كان فيه والضوء الذى انبعث منه منذ آلآف السنين ، وما نرصده فى هذه اللحظه هو فضاء أشبه ما يكون بالوهم أو السراب! فمن يصل فى هذه اللحظة إلى ذلك الموقع لن يجد شيئا! وتشبثنا بموقع النجم ناتج من خبرتنا الناتجة من تعاملات أغلبها مع أشياء ذات مواقع ثابتة كالمصباح والجبل والفنار. إنها حقا مسألة عجيبة ، والقرآن من فوق السماوات يشير إلى عِظمها ﴿**فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ**﴾ ، الآيتان 75 و 76 – سورة الواقعة.

والنسيان يسبب اضمحلال الإدراك وغيبة الوعى بمسألة ما ، وأبرز أسباب النسيان هو البعد الزمانى أو المكانى، وبسبب النسيان تضعف المشاعر والأحاسيس تجاه الشيء ، وجدير بالذكر أن نسيان الشيء لا يعنى انعدامه أو

انعدام تأثيره. والنسيان فيما يتعلق بالموضوع محل الدراسة ينقص من قيمة تلك الدراسة وجدواها ، ويضعف الإدراك. إذن فليحذر العاقل ويتأنى ويتفكر.

أمثلة مادية قريبة

هنا نحاول توضيح نماذج بسيطة للأخطاء المتعلقة بأشياء مادية ملموسة نراها رأى العين ومنها نعبر إلى غير الملموس؛ لنتصور حجم الأخطاء التى نقع فيها وتشوه الإدراك دون أن نشعر! هب أن فردا ينظر لصف من الأعمدة ، الموضح بعضها فى شكل (2).

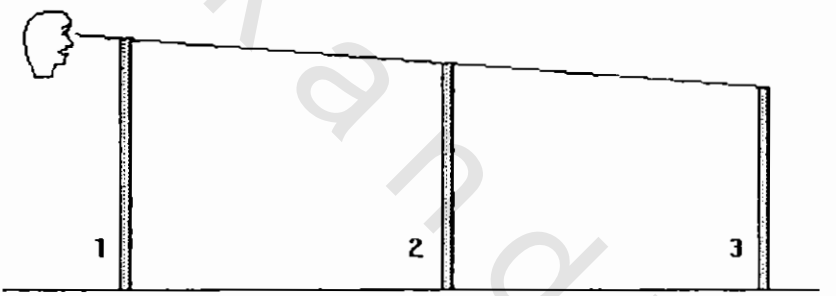

شكل (2). تغير صورة الحجم تبعا للبعد.

عندما يكون النظر من ناحية العمود الأيسر (رقم 1) ، فسوف يرى العمود القريب (رقم1) أكبر من الأعمدة الأخرى. وسيرى المسافة بين العمودين الأول والثانى أطول من المسافة بين العمودين الثانى والثالث ، وهكذا إلى أن يرى الأعمدة البعيدة متناهية الصغر ومتلاصقة. وهذه مجموعة من المعلومات الخاطئة سجلتها نظرة واحدة ، وما لم يدرك الناظر أن فى ذلك خداعا بصريا

فسيحسب أن الحقيقة هكذا. وهذه الأخطاء ليست كلها فى نفس المستوى ؛ فالخطأ فى تقدير حجم العمود الثالث أكبر من الخطأ فى تقدير حجم العمود الثانى ، وهكذا يتناسب الوضوح عكسيا مع البعد ، أو بعبارة أخرى تتناسب أحجام الأخطاء طرديا مع البعد. وتسرى هذه القاعدة على السمع أيضا ، بل على كل المدارك المادية والمعنوية ، ولكن البصر أوضح مثال ، وسبحان من قال : ﴿ **إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً ، وَنَرَاهُ قَرِيباً** ﴾ الآية 6 - سورة المعارج. إنه حال الجاهلين ، عجزت بصائرهم عن الإحساس بالغيب - بسبب البعد والغشاوات - فحسبوه معدوما.

نعود للأمثلة المادية الملموسة ، فإذا نظر الشخص من منطقة متوسطة بين كرتين ، كما فى شكل (3) فسيدرك تساوى قطريهما وهذه معلومة صحيحة ومنصفة ، فى حالة التوسط وعدم الميل ، وسيرى كلا منهما صغيرتين وهذا خطأ - لأنه غير الحقيقة - بسبب البعد ، ولكنه خطأ حميد لخلوه من التحيز ، ويمكن للخبرة أن تصححه. والظن سيُرجح أن الكرتين مكتملتان ومن نفس المادة ولهما نفس الوزن ، وكل هذا غير صحيح ، وسيتذبذب الظن (طرح العقل) بين كونهما مصمتتين أو مجوفتين ، وأيهما صنعت أولا. هذه اللمحة البصرية للكرتين (رغم بساطة حقيقتيهما) جمعت المعلومة الصحيحة والمعلومة الخاطئة ، وتم استكمال نقص المعلومات بظنون مرجحة (خاطئة) وأخرى مذبذبة ، هذا فضلا عن عدد كبير من المجاهيل مثل : السعر والملكية والعمر المتوقع وكثافة المادة وخشونة السطح .... إلخ.

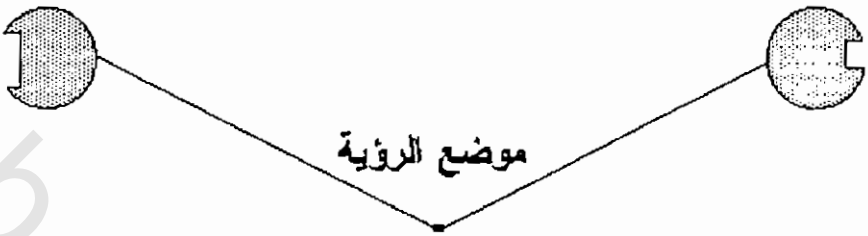

شكل (3). تساوى تصغير الحقيقة بسبب البعد.

وهكذا فمعلوماتنا عن كل الأشياء - صعيرها وكبيرها - خليط من نوعيات مشابهة لما سبق توضيحة. ولكن فيما يخص الحقائق الكبرى والبعيدة - عن مداركنا - تكون نسبة معلوماتنا الصحيحة عنها متناهية الضآلة بالمقارنة بالمعلومات الخاطئة والظنون والمجاهيل ، فكيف نتعجل فى الحكم ونرفض ونقبل ونكذب ونصدق ونعادى ونحب دون أن نتقصى ونتأكد من صحة معلوماتنا عن الشىء أو نقيضة!

ويحضرنى هنا مثال آخر يتعلق بالقرب والبعد ، فقد روى لى زميل أنه كان يبغض أحد الحكام لأنه ظلم أحد أقاربه سجنا وتعذيبا ، وذات يوم بينما هذا الزميل خارجا من معهده لاحظ نشاطا غير معهود بالشارع ، فسأل فقالوا : إن فلانا (الحاكم) سيمر ، فوقف الزميل وفى نيته أن ينظر باحتقار لهذا الظالم.

ويستطرد فيقول : إنه حين رأى الحاكم أماهـه مباشـرة علـى بعـد مـترين ، فـى موكبه المهيب (المصطنع) ، انطلق (الزميل) يهتف - لا شعوريا - بحيـاة الحـاكم لدرجة أنه أحس بعد ذلك بأثر الهتاف يؤلم حنجرته. لقد كـان الحـاكم الظـالم البعيد مكروها ثم أصبح بقربه اللحظى مبهرا فمحبوبا! هذا الكلام يحـدث مـن خلف العقل ؛ بتأثير القرب المكانى وليس بالمعايير الصحيحة أو بوزن الحقائق.

مما سبق يتضح أن الشىء القريب من النفس - مكانا أو زمانا أو فائدة أو رَحِما أو جنسا أو دينا أو لغة .... إلخ - يحرك المشاعر ويشغل فى العقـل حيزا وافـرا يسعه بترحيب ويسع ما يتعلق به أو يرتبط. وأما الشىء البعيد - مكانا أو زمانا - فالإحساس به أقل وتركه يسبق الإقبال عليه ؛ بسبب الجهل الناتج عن البعد. وعز من قال : ﴿كَلا **بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ، وَتَذَرُونَ الآخِـرَةَ**﴾ الآيتـان 20 و 21 - سورة القيامة. والعاجلة يغلب عليها الطابع المادى المطلوب بإلحاح مـن قبل الشهوات ، أما الآخرة فأسمى من ذلك ، وتبدو فـى الفكـر المـادى شـديدة البعد إن لم تكن عدما. ومن يتأمل هذه الخداعات الحسية لا يتعجب حين يرى من يستغلون خداع البعد الزمانى ويحاولون إنكار وجود حقائق ناصعة كرسـول الله عيسى المسيح عليه الصلاة والسلام ، حيث يوجد فى دول الحضـارة الماديـة من يدعى باسم حرية الفكر أن المسيح ليس إلا أسطورة! ولا يستثنى من ذلـك أبو الأنبياء - إبراهيم عليه الصلاة والسلام - فدعاوى إنكاره أسهل مـن إنكـار المسيح. وما أكثر من ينكر وجود الله وهو يدعى العقل - ولا حول ولا قوة إلا بالله - **كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا.**

الحمد لله رب العالمين الذى حفظ لنا دينه وكتابه المعجز وقبر خاتم المرسلين - صلى الله عليه وسلم ، وصحابته الكرام - رضوان الله عليهم ، حفظهم ضد خداع البعد الزمانى وحتى المكانى بتيسير وسائل الوصول إليه ، وإلا فما كان أسهل أن تأتى كتائب الحمقى لتنكر أصل الرسالة الخاتمة أو وجود صاحبها أصلا ، وعلى المتضرر أن يثبت العكس ، وإن تمكن من الإثبات فلن يجد من يسمعه وسط ضجيج التشويش والتضليل ، إن كان فى العمر بقية أو من الجهد ما يكفى للتبليغ. فمن يستطيع أن يثبت لعبد المختبر وعُبَّاد الآثار والحفريات حقيقة وجود الأنبياء نوح وإبراهيم وصالح وهود وزكريا ويحى - سلام الله عليهم - فى أزمان مضت وانقضت؟

أوجه معنوية

هذا الذى يحدث بالنسبة للأشياء المحسوسة يحدث شبيهه فى الأشياء غير الملموسة. فأقرب شيء للإنسان هو نفسه ، لذلك فحبها يطغى على سلامة تفكيره وينعكس على سلوكياته. لنفرض - مثلا - أن شخصين متساويين فعلا فى أشياء كثيرة ، ورغم هذا التساوى - الحقيقى - فسيرى كل منهما أنه أفضل وأقدر وأولى من الآخر ورأيه هو الأصوب ، وحين يتاح منصب تنطبق شروطه الموضوعية على كليهما فسيرى كل واحد منهما أنه الأجدر ؛ لأن نفسه أقرب ما يمكن إليه ولذلك فالإحساس بها أشد. وأيضا الإنسان يرى المشكلة كبيرة حين تخصه ، ويرى نفس المشكلة صغيرة حين تخص الغير. ورغم

شيوع هذا الشعور بين أغلب الناس إلا أنه شعور خادع وما يبنى عليه من أحكام يجافى العدل والإنصاف والحقيقة ، وعلى العقل هنا أن يقوم بالتصويب ؛ لأن المخ لن يفعل ولا يستطيع. وكلما زاد حب الإنسان لنفسه كلما زادت حدة الأمر وساء التقدير ، والعكس بالعكس إلى أن يتسامى الإنسان ويحب لأخيه ما يحب لنفسه ويشعر فيما يخص أخاه بما يشعر به فيما يخص نفسه ، ويرقى هذا الإحساس حتى يؤثر على نفسه طمعا فى رضا العزيز الكريم ، **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.**

قرب الإنسان من والديه أو من أبنائه أساسه مادى (رابطة دم وأرحام) ، أما قرب الله من الناس فروحى معنوى ؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - ليس مادة ، لذلك لا يشعر بهذا القرب إلا من خلصت نفوسهم من العلائق المادية وتفتحت بصائرهم ، أو حين تفارق الروح الجسد وتتخلص من ثقله. إن العليم الخبير يخاطب أهل المُحتضِر ومَن حوله قائلا: ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِن لا تُبْصِرُونَ**﴾ الآية 85 - الواقعة. أما عن علاقة النفس بخالقها ، وقربه سبحانه وتعالى منها ، فالنص الكريم يقول: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾ الآية 16 - سورة ق. فما أدق وسوسة النفس وما أخفاها! تلك الوسوسة التى لم ينطق بها لسان و لم تبح بها جارحة ، وتلك هى الإحاطة الكاملة عن قرب ، بل منتهى القرب!

إن الله سبحانه وتعالى فى غاية القرب من الإنسان : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِي فَإِنِّي قَرِيبٌ** ...﴾ - الآية 186 - سورة البقرة ، لكن البعيد هو الإنسان العاصى والجاهل والكافر ومن على شاكلتهم ، لأنهم حرموا أنفسهم من نعمة القرب فى رحاب الرضا. وهذا البعد هو سبب عدم إحساس الكافر بالله.

أما الشيطان فإنه " *يجرى من إبن آدم مجرى الدم*" ، كما جاء فى الحديث الشريف ، المتفق عليه ، عن أنس وعن أمنا صفية رضوان الله عليهما. وهذا قرب أكثر من لصيق ، ولكن ربنا حذرنا منه على ألسنة جميع رسله - عليهم أفضل الصلاة وأزكى التسليم - وبين لنا فى محكم التنزيل مدى عداوة إبليس لنا وتمكنه من ملاحقتنا هو وقبيله ، خفية: ﴿... **إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ** ...﴾ الآية - 27 - سورة الأعراف. فأى مأزق نحن فيه أشد من هذا المأزق! عدو يترصدنا هو وجيوشه ولا نراه ، ومن يقدر على أن يجيرنا منه غير القوى العزيز؟ نعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ويلى نفس الإنسان - فى القرب - أقربه ، ففى الظروف العادية يحس الإنسان ويهتم بأخيه أشد من إحساسه بابن عمه ، ويتعاطف تلقائيا مع عمه أكثر من تعاطفه مع والد زميله. يتمنى الإنسان أن يكون المشروع الفلانى من نصيب بلدته قبل أن يكون من نصيب البلدة الأخرى المجاورة ، ويود لو تكتب كل العلوم ويتحدث كل العالم بلغته هو. كل ذلك وأمثاله علامات تحيز (مادى)

تتسلل إلى النفس وتسكن فيها ويتصرف الإنسان على أساسها - بسبب خداع القرب والبعد - دون أن نجد من يحذر من خطأ التحيز الذى يضر بسلامة الحكم على الأشياء.

وعطف الأم على ولدها ليس بالضرورة أن يكون بدافع الحرص على الفضيلة أو الواجب ، بل هو فى الغالب غريزة تلقائية نحو القريب والقريب جدا ، وهذه الغريزة موجودة بوفرة لدى كل العجماوات ، ويؤجر الإنسان عليها إذا كانت معتدلة ومحتسبة. لكن العطف على الغير هو الموجب للتأمل والتقدير وما أروعه لو كان خاليا من الرياء وكان محتسبا! ولا يحدث ذلك إلا من عقل راجح ونفس شفافة خلت من العلائق ، وبصيرة نافذة ترى ما وراء الحجب المادية.

تورم الذات

أقرب شيء للإنسان نفسه ، وخطأ المغالاة فى الحب المادى للنفس - بالجهل - مصدر خطر ويبلغ مداه حين تتورم النفس فتبدو فى نظر صاحبها ضخمة عملاقة عبقرية عليمة فريدة ملهمة....إلخ. هذا المرض مهلك ، وكمعظم الأمراض يوجد أدوية (معنوية) تساعد على الشفاء منها وتوجد عوامل ومؤثرات تزيد الحالة تدهورا. من أبرز أسباب التدهور - فى حالة تورم الذات - نفخ الكذبة والمنافقين ، فنجد الإنسان طبيعيا وبسيطا قبل أن يتولى المنصب ، ثم يتوالى عليه مدح المنتفعين وتقرب الطامعين وتضاؤل المرتعشين وخوف

المقهورين و.....و...، فيحسب المسكين ويصدق أنه المعطى المانع الملهم الحكيم الذكى القوى الرافع الخاسف.... - أستغفر الله العظيم - يُصدق المنتفخ أن الشمس حين تسطع يكون ذلك بسبب طلعته البهية ، وحين يخطىء - معاليه - خطأ واضحا يُصدق قول الكاذبين بأن الظروف هى التى عاكسته.

نفس المتكبر غريبة لأنها بعدت عن حقيقتها ، والبعد عن الحقيقة نوع خفى من الغربة ، فكيف يستريح الغريب أو تقر له عين إن كان يشعر بهذه الغربة! وهذه الغربة لا تقتصر على أصحاب المناصب والثروات ، بل تراها فى صور شتى ، وتأمل نفسك يا أخى ، كيف تستقبل المدح والنقد! ولنتدبر قول واحد ممن لا نزكيهم على الله حين اعتذر له أحد إخوانه قائلا: إننى حين مدحت فلانا فى حضورك لم أقصد التقليل من شأنك أو أنه أفضل منك ، فرد قائلا : يا أخى لم أذهب إلى ما ظننت وها أنا ذا أدعو الله أن يرزق البشرية بمليار شخص أفضل منى ؛ عسى أن تنصلح أحوالنا ، فقل آمين.

كلما تضخمت النفس فى نظر صاحبها أو فى نظر الناس كلما زادت حساسيتها وتصبح الهمسة فى حقها جرما كبيرا يُوجب العقاب الشديد ، فكيف يجرؤ فلان هذا على المساس بالذات الملكية؟! وحتى المدح أحيانا يوصف بأنه أقل مما يليق بالذات العظيمة!! وعندئذ فكلمات صاحب النفس المتضخمة تنال حظها من الانتفاخ فتصبح هى الأخرى حكما - فى وقتها - ثم شعارات ، ثم تتعفن فى مزبلة التاريخ بعد زوال المُلك. وفى المقابل نجد

النفوس المتواضعة تعتبر النقد مفيدا وموجبا لتفادى العيوب ومانعا من تكرار الأخطاء ، وتؤثر الصمت على فضول الكلام. وما راحة المتواضع إلا بسبب اقترابه من حقيقته ، وفهمه لحقيقة نفسه وأنسه بصدق الواقع من حوله دون تناقض.

وعلى العاقل أن يحذر ويحمى نفسه من مرض الذات المتورمة ، ورحم الله من عرف قدر نفسه وتصرف على أساس تلك المعرفة. فحقيقة الإنسان أنه مخلوق من ماء مهين ، ونما على طعام أصله من نبت الطين ، ويغسل أو يمسح ما يخرج منه مرات كل يوم ، ولو احتبس بوله لطاش عقله ، ولا يملك التحكم فى دقات قلبه ، ثم يصير بعد ذلك جيفة يتلطف الله بها فيهيء لها ما يحولها إلى تراب. تلك هى الحقيقة الراسخة ، فعلام الغرور والانتفاخ!!

ومن العقل أن يُذكّر الإنسان نفسه بالحقائق الراسخات ليضع الأمور فى نصابها ، فهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يعود من إحدى غزواته مرفوع الرأس وإذا به يعلن ويقول : لقد رأيتنى فى هذه الشعاب أرعى إبل الخطاب. يذكّر نفسه حتى لا ينال منه الغرور. وهذا خاتم الأنبياء والمرسلين يقول للأعرابى الذى هابه :" *هون عليك فأنا إبن إمرأة من قريش كانت تأكل القديد*" - صلى الله عليك وسلم يا علم الهدى.

شدة القرب

الأمور ليست على إطلاقها ، فكثيرا ما نحد تأثير القرب أو البعد متباينا ومخالفا لما أوضحناه قبلاً ، فحينما تكون معلوماتنا عن الشيء غير صحيحة ، فالقرب يمكننا من تصحيحها أو الزيادة عليها وتكتشف عيوبا أو مزايا لم تكن واضحة وهى بعيدة ، وعندئذ تتغير المشاعر والأفكار والتقديرات سلبا أو إيجابا. فما كنا نتمناه بالأمس نزهده اليوم ، بعد أن صار تحت أيدينا فتحول اهتمامنا لغيره إلى حين الحصول عليه. وهكذا القرب والوفرة يجعلنا نزهد ، والبعد والندرة يجعلنا نشتاق والصور كلها مهزوزة والمعلومات ناقصة والحقيقة بالتالى غائبة ومعها راحة النفس وهدوء البال ، فلا تستقر الأمور إلا على الحقائق.

لكل شيء مزاياه وعيوبه ، والتزيين هو إبراز المزايا وتغطية العيوب فيبدو الشيء أكثر جاذبية. ويحدث التزيين بتفصيل وإبراز المنافع وإيجاز التكاليف أو عدم ذكرها. وإذا كانت مزايا الشيء ومنافعه محدودة فيمكن أن يضاف إليه أو عليه زينات أو ربطه بمغريات أو مزايا ، فيصبح مرغوبا لا لذاته ولكن لما ارتبط به من مزايا. والعكس فى وسائل التبغيض ، يتم إبراز العيوب والتكاليف ولا مانع من المبالغة – فى حالة التضليل – ولا مانع أيضا من طمس المزايا والتقليل من احتمال تحقق المنافع. وكل ذلك على حساب الحقيقة التى يُرسم لها صورة مزورة ومضللة.

أثر البعد على صحة المعلومة

كلما كان الإنسان قريبا من الشيء كلما تيسر له الإلمام بحقيقته ، والعكس صحيح. فالرؤية من مسافة مترين أصدق وأدق - بخصوص الشيء - منها على بعد عشرة أمتار ، هذا فى حالة وزن الشيء بالنسبة لنفسه أو بالنسبة لأشياء محدودة بجواره وهذه مجرد صور للحقيقة - فى حالة التدقيق. أما فى حالة الشمول فالعكس أولى ؛ لأن النظرة من بعد تجعل الإنسان أكثر حيادا وتبدو الأشياء مقارنة بما يجاورها ، وهذا أقرب للتوسط والاعتدال فى الحكم على الأشياء. إنما يحكم على الشيئين من عرفهما لا من عرف أحدهما و لم يعرف الآخر.

بفرض صحة معلومة ما فى أصل صدورها من منبعها الذى لم نشهده ، ولكنها وصلت إلينا عبر سلاسل بشرية وزمانية ومكانية ولغوية (ترجمات) .... ، بمعنى أنها وصلتنا نقلا سمعيا ، عن فلان سمع من فلان عن فلان.....إلى آخر السلسلة. كل فرد فى السلسلة عاش زمانه فى بلاده وتكلم لغته وله ذاكرته وفهمه وحرصه ومصالحه ومدى دقته وصدقه ودرجة إخلاصه. وكلما طالت السلسلة كلما زاد احتمال بعد المعلومة عن أصل صحتها وذلك بان يعلق بها أشياء أو يسقط منها شيء أو يزاد عليها شيء. إذا كان طول السلسلة يوجب علينا الحذر والحيطة والتثبت ، فماذا لو اختفت السلسلة فضلا عن البعد الزمانى بين الراوى والمروى عنه؟! وهذا ما حدث ويحدث مع كثير من الأشياء التى لم

نشاهدها ، حتى الأديان المقدسة لم تسلم من التحريف ، وهذا يعد نوعا من البلى الظاهر للأشياء - بفعل الزمن - الذى يُمكّن من تلف الأشياء إذا تم التفريط فى حفظها وتوثيقها ، وبالتالى تختفى أو تُزيف الحقائق المتعلقة بها.

فليحذر العقلاء ، فالجهل بالحقيقة لا يعفى من الوقوع فى مخاطرها مادام الله قد وهبنا عقلا وفرض علينا التفكر والتدبر والاعتبار ، وقص علينا القصص وضرب لنا الأمثال. فجهلنا بحقيقة الجاذبية لا يعفينا من السقوط بتأثيرها ، وجهلنا بحقيقة فساد طعام ما لا يعفينا من التسمم. فكيف نسلم عقولنا لتغرق - كسلا - فى فكر ومعتقدات آبائنا ومجتمعنا دون أن نُعمل عقولنا!! ألا تعلم أيها العاقل أن صاحب المذهب يزينه ويود لو أن كل الناس موافقون له ، وأن صاحب البضاعة يحرص على ترويجها بكل الحيل والوسائل الممكنة.